الحَجَرُ والحِجارةُ في القُرآنِ الكَريمِ

محمد عبد المطلب البكاء

كليةَ الفقهِ - جامعةَ الكوفةَ

فحوى البحث

بحث يعرض فيه الباحث لموارد كلمتي (الحجارة) و (الحَجَر) في القرآن الكريم ودلالة كل منهما في ضوء المعنى اللغوي الذي جاءت فيه . فكلمة (الحجر) وردت في القرآن الكريم مرتين [سورة البقرة : ٦٠] و [سورة الاعراف: ١٦٠] ولم ترد صيغة الجمع منها (احجار) في القران الكريم بل وردت بصيغة (حجارة) اي على السماع الذي وصفه بعض النّحاة واللغويين بالقلة مرة، وبالنادر مرة اخرى وقد وردت في عشر آيات من القرآن، مر بها الباحث واشبعها تفسيراً مستنداً الى اوثق المصادر التفسيرية و اللغوية.

تقــديم:

الحَجَرُ: الصَّخْرَةُ، والجمع في القلة أحْجارٌ، وفي الكثرة: حِجارٌ وحِجَارةٌ، وقال الشاعر:

كأنها من حِجارِ الغَيْلِ، ألبسَها

مَضارِبُ الماء لَوْنَ الطُّحْلُبِ التَّرِبِ

ونقل عن الليث: الحَجَرُ جمعه الحِجارَةُ، وليس بقياس لأن الحَجَر وما أشبهه يجمع على (أَحْجار)، ولكن يجوز الاستحسان في العربية كما أنه يجوز في الفقه وترك القياس له. ومثله: المِهارَة والبِكارَة لجمع المُهْرِ والبِكْرِ.

ويروى عن أبي الهيثم أنه قال: العرب تدخل الهاء في كل جمع على (فِعَال) أو (فُعُول)، وإنما زادوا هذه الهاء فيها لأنه إذا سكت عليه اجتمع فيه عند السكت ساكنان: أحدهما الألف التي تَنْحَرُ آخِرَ حَرْفٍ في (فِعال)، والثاني آخِرُ (فِعال) المسكوت عليه، فقالوا: عِظامٌ وعِظامَةٌ، ونِفارٌ ونِفارَةٌ. قال الأزهري: وهذا هو العلة التي عللها النحويون، فأما الاستحسان الذي شبهه بالاستحسان في الفقه فإنه باطل[1].

وقال سيبويه في ((هذا باب تكسير الواحد للجمع)): وما كان على ثلاثة أحرف، وكان (فَعَلا) فإنك إذا كسرته لأدنى العدد بَنَيتَهُ على (أَفْعال). وذلك قولك: (جَمَلٌ) و(أَجْمال)، و(جَبَلٌ) و(أَجْبال) و(أَسَدٌ) و(آسادٌ). فإذا جاوزوا به أدنى العدد فإنه يجيء على (فِعَالٍ وفُعُولٍ). فأمّا (الفِعال) فنحو: جِمالٍ وجبالٍ، وأمَّا (الفُعول) فنحو: أُسودٍ وذُكورٍ. و(الفِعَال) في هذا أكثر.

وقد يُلحقون (الفِعَال) الهاء، كما ألحقوا (الفِعَال) التي في (الفَعْل) وذلك قولهم في: (جَمَلٍ) (جِمالةٌ)، و(حَجَرٍ) (حِجارةٌ)، وذلك قليل. والقياس على ما ذكرنا[2].

وقال ابن فارس: ((وقياس جَمْعِهِ في أدنى العدد (أَحْجار) و (الحِجارة) نادرٌ))[3].

وبذا نرى أن (أَفْعال) من أبنية القلة

(١) ينظر: اللسان (حجر).
(٢) ينظر: الكتاب ٣/ ٥٧٠، ٥٧١.
(٣) مجمل اللغة ١/ ٤٦٢.

في الأوزان السماعية، وهو يقاس في كل مفردٍ جاء اسماً على (فَعَل) نحو: (قَدَم) (أَقْدام) و(وَثَن) (أَوْثان). أمّا (فِعَال) فهو من أبنية الكثرة، ويقاس في (فَعَل) اسماً وصفة، نحو: (جَمَل) (جِمال) و(حَسَن) (حِسان)[٤].

أما (فِعَالة) فهو سماعي فيما ورد عليه، وقد سمع في (فَعَل) نحو: (حَجَر) (حِجارة)[٥]. وقال ابن خالويه: هو جمع غريب[٦].

ونقل عن الفراء قوله: العرب تقول: الحَجَرُ الأُحْجُرُّ على (أُفْعُلٍّ)، وأنشد:

يَرْميني الضَّعِيفُ بالأُحْجُرِّ.

ويقال: رُمِيَ فلانٌ بِحَجَرِ الأرض، إذا رُمي بداهيةٍ من الرجال، وفي حديث الجَسَّاسةِ والدَّجال: تبعه أهل الحَجَرِ وأهل المَدَرِ، يريد أهل البوادي الذين يسكنون مواضع الأحجار والرمال، وأَهلُ المَدَر أهل البادية.

(٤) ينظر: أبنية الصرف في كتاب سيبويه ص٢٩٧، ٢٩٨.
(٥) ينظر: السابق ص٣٢٠.
(٦) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص١٩٤.

الحَجَر والحِجارة:

مما تقدم نرى أن (الحَجَر) يجمع جمع قلة على (أَحْجار) أمّا جمع الكثرة فهو (حِجَار). وكلاهما من الأوزان القياسية، وقد تلحقه الهاء، فيقال: (حِجارة). أما قول سيبويه: ((وذلك قليل والقياس على ما ذكرنا))[٧]. أو قول ابن فارس: أنه نادر[٨] فلا يخلو من نظر:

ذلك أن لفظ (الحَجَر) قد جاء مفرداً في القرآن الكريم مرتين في آيتين كريمتين، هما: [سورة البقرة: ٦٠] و [سورة الأعراف: ١٦٠]، أما صيغة الجمع، فلم يرد جمع القلة (أحْجار) في سور القرآن الكريم كلّها، وما جاء من جمع كثرة فهو على وزن (فِعَالة) (حِجَارة)، أي على السماع. وقد ورد ذكرها عَشْر مرات: [سورة البقرة: ٧٤] [سورة الأنفال: ٣٢] [سورة هود: ٨٢] [سورة الحِجْر: ٧٤] [سورة الإسراء: ٥٠] [سورة الذاريات: ٢٣] [سورة التحريم: ٦] [سورة الفيل: ٤]. أما (حِجار) جمع الكثرة القياسي فلم

(٧) ينظر: الكتاب ٣/ ٥٧١.
(٨) ينظر: مجمل اللغة ١/ ٤٦٢.

يرد في القرآن الكريم قط.

أولاً: الحجر:

١. قال الله تعالى في [سورة البقرة: ٦٠]: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.

قال الزجاج: فجرَّ الله لهم من حجرٍ اثنتي عَشْرة عيناً لاثني عَشَرَ فريقاً، لكل فريق عين يشربون منها، تتفجرُ إذا نزلوا فإذا ارتحلوا غارت العين، وحَمَلوا الحجرَ غير متفجر منه ماء[٩]. وذلك ان قوم موسى لما عطشوا في التيه، واستسقى موسى لقومه ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ اللام فيه للعهد على ما روي أنه كان حجراً طورياً مكعباً حمله معه، وكان ينبع من كل وجه ثلاث أعين تسيل كل عين في جدول إلى سبط، وكانوا ستمائة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً، أو (حجراً) أهبطه آدم من الجنة، ووقع إلى شعيب عليه السلام فأعطاه إياه مع العصا أو الحجر الذي فَرّ بثوبه لما وضعه ليغتسل، وبرأه الله به مما رموه به من الأُدْرة[١٠]. فأشار إليه جبريل عليه السلام بحمله، أو للجنس وهذا أظهر في الحجة، قيل: لم يأمره بأن يضرب حجراً بعينه، ولكن لما قالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى أرضٍ لا حجارة بها؛ حمل حجراً في مخلاته، وكان يضربه بعصاه إذا نزل فينفجر، ويضربه بها إذا ارتحل فييبس، فقالوا: إنْ فقد موسى عصاه متنا عطشاً، فأوحى الله اليه لا تقرع الحجر، وكلّمه يطعك لعلهم يعتبرون، وقيل: كان الحَجَرُ من الرخام، وكان ذراعاً في ذراع، والعصا عشرة أذرع على طول موسى عليه السلام من آس الجنة، ولها شعبتان تتقدان في الظلمة. ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ متعلق بمحذوف تقديره: فإن ضربتَ فقد

(٩) معاني القرآن وإعرابه ١/ ١١٣.

(١٠) الأدرةُ (بالضم): نفخة في الخصية، يقال رجل آدَرُ بيّن الأدَر، وقيل: هو الذي يصيبه فتق. ومنه الحديث: إن بني إسرائيل كانوا يقولون إن موسى آدَرُ، من أجل أنه كان لا يغتسل إلا وحده. وفيه نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [سورة الأحزاب: ٦٩]. وعن الليث: الأدَرَة والأدَرُ مصدران، والأدْرَة: اسم تلك المنتفخة، والأدَرُ نعت. ينظر: اللسان (أدر).

انفجرت، أو فَضَرب فانفجرت[١١].

٢. أما قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٠].

قال البيضاوي: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ ﴾ في التيه ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ ﴾ أي: فضرب فانبجست وحذفه للايماء على أن موسى عليه السلام لم يتوقف في الامتثال، وأن ضربه لم يكن مؤثراً يتوقف عليه الفعل في ذاته[١٢].

فـ(الفجْر) تفجيرك الماء، والمَفجَرُ: الموضع الذي ينفجر منه، وانْفَجر الماء والدم ونحوهما من السيّال.

أما (البَجس)، فهو: انشقاق في قربةٍ أو حَجر أو أرض ينْبع منه الماء، فإن لم ينبع فليس بانْبِجاسٍ.. وماء بَجِيس: سائل، والسحاب يَتَبجسُ بالمطر، والانبجاس عامٌّ، والنُّبُوع للعين خاصة. وبَجَسْتُ الماء فانبجس، أي فجرْته فانفجر[١٣].

إلا أن تعاور المفردات في التعبير القرآني أمر وارد، إذ تستعمل مفردة في موطن وتستعمل غيرها في موطن آخر شبيه به، بل في القصة الواحدة قد تستعمل مفردة في موضع وتستعمل غيرها في موضع آخر مع أن القصة واحدة والموقف واحد وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ فَٱنفَجَرَتْ ﴾[سورة البقرة: ٦٠] وقوله: ﴿ فَٱنۢبَجَسَتْ ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٠] والانفجار بالماء أغزر من الانبجاس، فخالف بين المفردتين مع أن القصة واحدة والموضع واحد.

وتعليل ذلك كما قال د. فاضل صالح السامرائي: أن المذكور قد يكون عاماً في موطن وخاصاً في موطن آخر، وقد تكون له حالتان فيذكر حالة في موطن، ويذكر حالة أخرى في موطن آخر. وقد يكون الأمر عاماً فيذكر جزءاً منه في موطن، ويذكر الجزء الآخر في الموطن الآخر. وكل

(١١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١/ ٥٨، ٥٩. وينظر بهامشه (تفسير الجلالين).

(١٢) المصدر السابق ١/ ٣٧٣. وينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (الآية ٦٠ البقرة) ١/ ١١٢.

(١٣) ينظر: العين ٦/ ١١، ٥٨ واللسان (فجر) (بجس).

ذلك بحسب ما يقتضيه السياق والمقام.

فإذا كان (الانفجار) أكثر وأغزر من الانبجاس، فلم قال سبحانه ((انفجرت)) مرة، وقال ((انبجست)) مرة أخرى، وما حقيقة الأمر، أهي انفجرت العيون بالماء أم انبجست؟.

والجواب: إن كلا الأمرين حصل، فقد انفجرت أولاً بالماء الكثير -كما قيل- ثم قلَّ الماء بمعاصيهم فأخذ ينبجس، فذكر حالة الانفجار في (البقرة)، وحالة الانبجاس في (الأعراف). فالأمران واقعان وكلاهما حقيقة، غير أنه ذكر حالة كل منهما تبعاً لما يقتضيه السياق، ولو غاير بينهما فاستعمل (الانفجار) مكان (الانبجاس) لكان خلاف الأولى، وخلاف ما يقتضيه السياق والمقام، والسر في ذلك:

١. إن موسى عليه السلام هو الذي استسقى في سورة البقرة، فناسب إجابته بانفجار الماء، في حين ذكر في سورة الأعراف أن قومه هم الذين استسقوا موسى. والحالة الأولى أكمل، فناسب إجابته بانفجار الماء دون الثانية.

٢. قال تعالى في سورة البقرة ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾. أي أن الله قال ذلك لموسى قولاً في حين ذكر في الأعراف أن الله أوحى إلى موسى بذلك وحياً. ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ ﴾. والحالة الأولى أكمل وأتم، فإن القول الصريح من الله أكمل وأقوى من الوحي فناسب ذلك ذكر الانفجار في (البقرة) والانبجاس في (الأعراف)[١٤].

((إذِ)) في الآية الكريمة [سورة البقرة: ٦٠] كسرت الذال لالتقاء الساكنين و((إذ)) غير معربة لأنها بمنزلة (في) إنها اسم لا تتم إلا بما بعدها[١٥]. وقال الزجاج: ((إذ)) لا يظهر فيها الإعراب لأنها لا تتم إلا بأن توصل، وجميع ما لا يتم من هذه المهمة إلا بصلة لا يعرب لأنه بعض اسم، ولا يعرب إلا الاسم التام، ومعنى ((استسقى)) استدعى أن يُسْقى قوْمُه، وكذلك استَنْصَرت استَدعْيتُ النَّصْرة[١٦].

(١٤) ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ص٩٧، ١٠٠، ١٠١).
(١٥) إعراب القرآن ١/ ١٨٠.
(١٦) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ١/ ١١٢.

أما قوله تعالى ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ أي: (فضربَ فانفجرت)، وزعم ابن عصفور أن الفاء في ((فانفجرت)) هي فاء ((فضرب))، وأن فاء ((فانفجرت)) حذفت، ليكون على المحذوف دليل ببقاء بعضه، وليس بشيء، لأن لفظ الفاءين واحد، فكيف يحصل الدليل؟.

وجوز الزمخشري ومن تبعه أن تكون فاء الجواب، أي: فإن ضربت فقد انفجرت، ويردُّه أن ذلك يقتضي تقدم الانفجار على الضرب مثل ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [سورة يوسف: ٧٧]، إلا إن قيل: المراد (فقد حكمنا بترتب الانفجار على ضربك)[١٧].

ثانياً: الحِجارة:

أشرنا إلى أن جمع القلة في (حَجَر) (أَحْجار) وجمع الكثرة (حِجار)، وهذا هو القياس، وذكر سيبويه: أن الهاء قد تلحق (فِعال) فيقال: (فِعالة) نحو: حِجار وحِجارة، إلا أن ذلك قليل[١٨]. وهو من الأوزان السماعية. قال عنه ابن خالويه: أنه جمع غريب، وعدّه ابن فارس نادراً[١٩]، إلا أن اللافت للنظر أن جمع (حَجَر) على (حِجار) وهو القياس في جمع الكثرة لم يرد في القرآن الكريم، وإنما جاء جمعه على السماع (حِجَارة). وقد ورد ذكره عشر مرات -كما مرّ بنا -سنبدأ بتفصيل القول فيها.

١. قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[سورة البقرة: ٢٤].

إن معنى الآية الكريمة يتضح من خلال سياق الآيات التي قبلها [سورة البقرة: ٢٠ -٢٢] ذلك: أنّ الله سبحانه احتج على العرب بأنه خالقهم، وخالق مَنْ قَبلَهم لأنهم كانوا مُقِرين بذلك، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [سورة الزخرف: ٨٧]. قيل لهم: إن كنتم مقرين بأنه خالقكم فاعبدوه، ولا تعبدوا الأصنام[٢٠].

ثم قيل لهم: لا تجعلوا لله أمثالاً وأنتم

(١٧) المعنى ص٨٢٠، ٨٢١.
(١٨) ينظر: الكتاب ٣/ ٥٧١.
(١٩) ينظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص١٩٤، مجمل اللغة ١/ ٢٦٤.
(٢٠) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٦٣.

تعلمون أنهم لا يَخْلُقون، والله الخالق.

وبعدان احتج سبحانه على العرب في تثبيت توحيد الله عز وجل، احتج عليهم بتثبيت أمر النبيﷺ [سورة البقرة: ٢٣]. ثم قيل لهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ بعد أن ثبت عليهم أمر التوحيد، وأَمر النبيﷺ فوعدوا بالعذاب إن لم يؤمنوا بعد ثبوت الحجة عليهم. وقوله عز وجل: ﴿ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾. عرفوا عذاب الله عز وجل بأشد الأشياء التي يعرفونها لأنه لا شيء في الدنيا أَبلغ فيما يؤلم من النار فقيل لهم: إن عذاب الله من أشد الأجناس التي يعرفونها، إلا أنه من هذا الشديد الذي يعرفونه، ويقال: إن الحجارة هنا تفسيرها حجارة الكبريت، وقوله ﴿وَقُودُهَا﴾ الوقود هو الحطب، وكل ما أوقد به فهو وقود[٢١].

إنَّ الله سبحانه بعد أن بين للعرب ما يتعرفون به أَمر الرسولﷺ وما جاء به، وميز لهم الحق عن الباطل رتب عليه ما هو كالفذلكة له، وهو أنكم إذا اجتهدتم في معارضته وعجزتم جميعاً عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه ظهر أنه معجز، والتصديق به واجب فآمنوا به، واتقوا العذاب المعد لمن كذب، فعبر عن الإتيان المكيف بالفعل الذي يعم الإتيان به، وغيره إيجازاً، ونزل لازم الجزاء منزلته على سبيل الكناية تقريراً للمكنى عنه، وتهويلاً لشأن العناد، وتصريحاً بالوعيد مع الإيجاز، وصدّر الشرطية بـ(أن) التي للشك، والحال يقتضي (إذا) الذي للوجوب، فإن القائل سبحانه وتعالى لم يكن شاكاً في عجزهم، ولذلك نفى إتيانهم معترضاً بين الشرط والجزاء تهكماً بهم، أو خطاباً معهم على حسب ظنهم، فإن العجز قبل التأمل لم يكن محققاً عندهم، و((تفعلوا)) جزم بـ ((لم)) لأنها واجبة الإعمال مختصة بالمضارع متصلة بالمعمول، ولأنها لما صيرته (ماضياً) صارت كالجزء منه، وحرف الشرط كالداخل على المجموع، وكأنه قال: (فإن تركتم الفعل) ولذلك ساغ إجتماعهما، و((لن)) كـ (لا) في نفي المستقبل غير أنه أبلغ، وهو حرف مقتضب عند سيبويه، والخليل في إحدى الروايتين عنه، وفي

(٢١) ينظر: السابق ١/ ٦٥ -٦٧.

الرواية الأخرى أصله (لا إن) وعند الفراء (لا) فأبدلت ألفها نوناً[٢٢]. و(الوَقود) بالفتح ما توقد به النار، وبالضم المصدر، وقد جاء المصدر بالفتح، وقال سيبويه: وسمعنا من يقول: [وَقَدتِ النّارُ وَقُوداً عالياً]. والاسم بالضم[٢٣]. ولعله مصدر سمي به، والظاهر: أن المراد به الاسم، وإن أريد به المصدر فعلى حذف مضاف، أي: وقودها احتراق الناس، و(الحِجارة) جمع حَجَر، والمراد بها الأَصنام التي نحتوها وقرنوا بها أنفسهم، وعبدوها طمعاً في شفاعتها، والانتفاع بها، واستدفاع المضار لمكانتها، وقيل: (حجارة الكبريت) وهو تخصيص بغير دليل، وإبطال للمقصود، إذ الغرض تهويل شأنها، وتفاقم لهبها بحيث تتقد بما لا يتقد به غيرها، والكبريت تتقد به كل نار وإن ضعفت، فإن صح هذا عن ابن عباس رضي الله عنه فلعله عَنَى به الأحجار كلها لتلك النار كحجارة الكبريت لسائر النيران، ولما كانت الآية (مدنية) نزلت بعدما نزل قوله تعالى في سورة التحريم: ﴿ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ (الآية ٦)، وسمعوه صح تعريف النار، ووقوع الجملة صلة، فإنها يجب أن تكون قصة معلومة[٢٤]. وذهب السيوطي إلى أن وقودها ((الناس)) الكفار و((الحجارة)) كأصنامهم منها يعني: أنها مفرطة الحرارة تتقد بما ذكر لا كـ (نار الدنيا) تتقد بالحطب ونحوه[٢٥].

(٢٢) قال ابن هشام: (لَنْ) حرف نصب ونفي واستقبال، وليس أصله، وأصل (لم) (لا) فأبدلت الألف نوناً في (لن) وميماً في (لم) خلافاً للفراء، لأن المعروف إنما هو إبدال النون ألفاً لا العكس، نحو: ﴿ لَنَسْفَعًا ﴾ [سورة العلق: ١٥]، و﴿ وَلَيَكُونًا ﴾ [سورة يوسف: ٣٢]، ولا أصل (لـن) (لا أن) فحذفت الهمزة تخفيفاً، والألف للساكنين خلافاً للخليل والكسائي. ينظر: المغني ص٣٧٣، ٣٧٤.

(٢٣) ينظر: الكتاب ٤/ ٤٢. وقال سيبويه: و(الوُقود) أكثر. و(الوَقود) الحطب. وقد سمع (فَعول) في الفعلين: وَقَدَ (وقوداً)، وقيل: (قبولاً)، وقد سمعهما سيبويه عن العرب بنفسه على هذا البناء. وذكر الأخفش أنَّ (الوقود) بالفتح (الحطب) و (الوقود) بالضم (الإتقاد) وهو المصدر. ينظر: أبنية الصرف في كتاب سيبويه ص٢٣٦.

(٢٤) ينظر: أنوار التنزيل ١/ ٣٦.

(٢٥) ينظر: تفسير الجلالين (هامش المصدر السابق).

فإن سأل سائل: كيف دخلت ((إن)) على (لم) ولا يدخل عامل على عامل؟.

فالجواب: أن ((إن)) هنا غير عاملة في اللفظ فدخلت على ((لم)) كما تدخل على الماضي لأنها لا تعمل في ((لم)) كما لا تعمل في الماضي، فمعنى ((إن لم تفعلوا)) إن تركتم الفعل. قال الأخفش سعيد، إنما جزموا بـ (لم) لأنها نفي فأشبهت ((لا)) في قولك: لا رجلَ في الدار، فحذفت بها الحركة كما حذف التنوين من الأسماء، وقال غيره: جزمت بها لأنها أشبهت (إن) التي للشرط لأنها تَردُّ المستقبل إلى الماضي، كما ترد (إن) فتحتاج إلى جواب فأشبهت الابتداء والابتداء يَلْق [كذا] به مع الأسماء الرفع، وهو أولى بالأسماء، فكذا حذف مع (إن) لأن أولى ما للأفعال السكون.

وقوله: ﴿ وَلَن تَفۡعَلُواْ ﴾ نصب بـ(لن) وعلامة نصبه حذف النون، واستوى النصب والجزم في الأفعال لأنهما فرعان، وهما بمنزلة النصب والخفض في الأسماء. قال أبو عبيدة: من العرب من يجزم بـ(لن) كما يجزم بـ(لم).

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ جواب الشرط في الفاء وما بعدها، ولغة تميم وأسد ((فتقوا النّار))، وحكى سيبويه: تَقَى -يَتَقِي[٢٦]. ((النَّار)) مفعولة ((التي)) من نعتها ((وقودها)) مبتدأ ((الناسُ)) خبر، ((والحجارةُ)) عطف عليهم[٢٧].

إن قول الله تعالى في صفة جهنم: ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ هو تحذير منها بإعلامه أنها تأكل الحجارة. قال أبو ذؤيب الهذلي يصف شدة ما نزل به من المصيبة بما مثله لصبره وتجلده:

حتى كأنّي للحوادِثِ (مَرْوَةٌ)[٢٨]

بِصَفا المُشَرَّقِ كُلَّ يوم تُقْرَعُ[٢٩]

٢. الآية الثانية: ﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ

(٢٦) قال سيبويه: والدليل على أنهم يفتحون الياءات في (يَفْعَل)، ومثل ذلك قولهم: (تَقَى الله رجلٌ) ثم (يَتّقِي الله) أجروه على الأصل. ينظر: الكتاب ٤/ ١١٢.

(٢٧) ينظر: إعراب القرآن ١/ ١٤٩، ١٥٠.

(٢٨) المَرْو: حجارة بيض برّاقة تكون فيها النار، وتقدح منها النار، قال أبو ذؤيب:

الواهِبُ الأُدْمَ كالمَرْوِ الصّلاب، إذا ما حارَدَ الحُوُر، واجْتُثَّ المجاليحُ

واحدتها مَرْوة، وبها سميت المَرْوة بمكة، شرفها الله تعالى. ينظر اللسان (مرا).

(٢٩) ينظر: المفضليات (١١/ ١٢٦) ص٤٢٢.

﴿مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾[سورة البقرة: ٧٤].

القساوة: الصّلابة في كل شيء، وقسا يقسو فهو قاسٍ[٣٠]. لذا فإن: تأويل ((قست)) في اللغة: غلظت ويبست وصلبت، وتأويل القسو في القلب: ذهاب اللين والرحمة والخضوع والخشوع منه، ومعنى ((من بعد ذلك)) أي من بعد إحياء الميت لكم بعُضْوٍ من أعضاء البقرة، وهذه آية عظيمة كان يجب على من يشاهدها- فشاهد بمشاهدتها من قدرته عز وجل ما يزيل كل الشك -أن يلين قلبه ويخضع، ويحتمل أن يكون ((من بعد ذلك)) من بعد إحياء الميت، والآيات التي تقدمت ذلك، نحو: مسخ القردة والخنازير، ونحو رفع الجبل فوقهم، ونحو إنبجاس الماء من حجر يحملونه معهم[٣١]. فجرى آخر الكلام على أوله، بالخطاب كله لليهود، وهو الاختيار، لأَن عليه الجماعة، وهو اختيار أبي عبيد[٣٢].

فـ((قست)) في قوله تعالى، تقول: (قسا) فإذا زدت التاء حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ((قلوبكم)) مرفوعة بـ (قست)[٣٣].

وقوله عز وجل: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ﴾. الكاف: حرف جر متعلقة بمحذوف تقديره: فهي مستقرة كالحجارة، ويجوز أن يكون اسماً بمعنى (مثل) في موضع رفع، ولا تتعلق بشيء[٣٤]. وقال النحاس: (الكاف) في موضع رفع على خبر ((هي)). ((أَو أشدُّ)) عطفٌ على الكاف. ويجوز ﴿أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾ تعطفه على الحجارة. (قسوةً) على البيان[٣٥].

وقال الزجاج: دخول ((أو)) ههنا لغير معنى الشك، ولكنها ((أو)) التي تأتي للإباحة. تقول: الذين ينبغي أن يؤخذ عنهم العلم الحسن أو ابن سيرين، فلست

(٣٠) العين ٥/ ١٨٩، اللسان (قسا).
(٣١) معاني القرآن وإعرابه ١/ ١٢٨.
(٣٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٢٤٨.
(٣٣) إعراب القرآن ١/ ١٨٨.
(٣٤) إملاء ما من به الرحمن ١/ ٤٤. وينظر: الجمان في تشبيهات القرآن ص٨٦.
(٣٥) إعراب القرآن ١/ ١٨٨.

بشاك، وإنما المعنى ههنا: هذان أهلٌ لأنْ يؤخذ عنهما العلم، فإن أخذته عن الحسن فأنت مصيب وأن أخذته عن ابن سيرين فأنت مصيب، وأن أخذته عنهما جميعاً فأنت مصيب، فالتأويل: اعلموا أنَّ قلوب هؤلاء إن شبهتم قسوتها بالحجارة فأنتم مصيبون أو بما هو أشد فأنتم مصيبون، ولا يصلح أن تكون ((أو)) ههنا بمعنى (الواو). وكذلك قوله: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ... أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾[سورة البقرة: ١٧ -١٩] أي: إن مثَّلتهم بالمستوقد فذلك مثلهم، وإن مثلتهم بالصّيّب فهو لهم مثل[٣٦].

وقال العكبري: ((أو)) ههنا كـ((أو)) في قوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ و((أشدّ)) معطوف على الكاف، تقديره: أو هي أشدّ[٣٧].

وقرئ بفتح الدال ((أو أَشدّ قَسْوَة)) فهو على خفض في الأصل بمعنى الكاف، ولكن ((أشدّ)) (أفعل) لا ينصرف لأنه على لفظ الفعل، وهو نعت ففتح، وهو في موضع جر[٣٨]. وقال العكبري: أنه مجرور عطفاً على الحجارة، تقديره: أو كأشد من الحجارة، و((قسوة)) تمييز وهي مصدر[٣٩].

ويجوز في قوله تعالى: ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ ﴾ ((فَهْي)) كالحجارَةِ -باسكان الهاء- لأن الفاء مع (هي) قد جعلت الكلمة بمنزلة (فَخْذ)، فتحذف الكسرة استثقالاً، وقد روى بعض النحويين أنه يجوز في ((هي)) الاسكان في الياء من ((هي))، قال الزجاج: ولا أعلم أحداً قرأ بها، وهي عندي لا يجوز إسكانها ولا إسكان الواو في ((هو))، لا يجوز ((هو ربكم)) وقد روى الاسكان بعض النحويين وهو رديء لأن كل مضمر فحركته -إذا انفرد -الفتح، نحو: أنا ربكم، فكما لا تسكن نون ((أنا)) لا تسكن هذه الواو[٤٠].

أما قوله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ فـ((ما)) في

(٣٦) معاني القرآن وإعرابه ١/ ١٢٩. وينظر: ١/ ٥٨ -٦٠ والجمان في تشبيهات القرآن ص٩٠.
(٣٧) إملاء ما من به الرحمن ١/ ٤٤، ٤٥.
(٣٨) معاني القرآن وإعرابه ١/ ١٢٩.
(٣٩) إملاء ما من به الرحمن ١/ ٤٥.
(٤٠) معاني القرآن وإعرابه ١/ ١٢٩، ١٣٠.

موضع نصب لأنها اسم (إنّ) و(اللام) للتوكيد منه على لفظ ((ما)). وفي قراءة أُبي ((مِنْها)) على المعنى. قال أبو حاتم: يجوز ((لما تتفجر منه الأنهار))، ولا يجوز (لَمَا تشَّقَّق) لأنه إذا قال: (تنفجر) أنثه بتأنيث الأنهار، وهذا لا يكون في (تَشَّقَّقُ).

قال أبو جعفر: يجوز ما أنكره يحمل على المعنى لأن المعنى: وان منها الحجارة تشقق، وأمّا يشقق بالياء فمحمول على لفظ ((ما)). وأما الكسائي فيقول: هو مذكر على تذكير البعض ومثله عنده ﴿نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ [سورة النحل: ٦٦]، أي: مما في بطون بعضه[٤١].

قال العكبري: (يتفجر) لو قرئ بالتاء جاز، ولو كان في غير القرآن لجاز منها على المعنى. ((يَشّقّق)) أصله (يتشقق)، فقلبت (التاء) (شيناً) وأدغمت وفاعله ضمير (ما) ويجوز أن يكون فاعله ضمير الماء، لأن (يشقق) يجوز أن يجعل للماء على المعنى، فيكون معك فعلان، فيعمل الثاني منهما في الماء، وفاعل الأول مضمر على شريطة التفسير، وعند الكوفيين: يعمل الأول فيكون في الثاني ضميره. ((من خشية الله)). (من) في موضع نصب بـ ((يهبط))، كما تقول: يهبط بخشية الله[٤٢].

بيّن الله عز وجل في هذه الآية: كيف كانت قلوبهم أنها أَشدّ قسوة، وأصلب من الحجارة، واعلم أن الحجارة تتفجر منها الأنهار، ومنها ما يشَّقَّق فيخرج منه الماء يعني العيون التي تخرج من الحجارة، ولا تكون أنهاراً، ومنها ما يهبط من خشية الله، نحو (الجبل) الذي تجلى الله له حين كلّم موسى عليه السلام، وقال قوم: إنها أَثر الصنعة التي تدل على أنها مخلوقة، وهذا خطأ؛ لأن ليس منها شيء ليس أثر صنعة بيناً في جميعها، وإنما الهابط منها مجعول فيه التمييز، كما قال عز وجل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحشر: ٢١]. وكما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ثم قال: ﴿وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [سورة الحج: ١٨]. فاعلم أن ذلك تمييز أراد الله منها، ولو كان يراد بذلك الصَّنعة لم يقل وكثيرٌ من الناس، وكثير حق عليه العذاب، لأن أثر

(٤١) إعراب القرآن ١/ ١٨٨، ١٨٩.

(٤٢) إملاء ما من به الرحمن ١/ ٤٥.

الصنعة شامل للمؤمن وغيره[٤٣].

لقد شبه عز وجل قلوب اليهود في القسوة بالحجارة، لأن الحجارة هي غاية في المثل.

ثم بيّن جلّ اسمه كيف كانت قلوبهم أشدّ قسوة من الحجارة، فقال: ﴿... وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾. يعني العيون التي لا تكون أنهاراً.

٣. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الأنفال: ٣٢].

القراءة على نصب ((الحقّ)) خبر كان، ودخلت ((هو)) للفصل. وهي لا موضع لها، وأنّها بمنزلة ((ما)) المؤكدة، ودخلت ليُعْلَمَ أن الحقّ ليس بصفة لهذا أو أنه خبر، ويجوز: ((هو الحقُّ من عِنْدك)) ولا أعلم أحداً قرأ بها. ولا اختلاف بين النحويين في إجازتها، ولكن القراءة سُنَّةٌ لا يقرأ فيها إلا بقراءةٍ مروية[٤٤].

أما وجه جواز قراءة الرفع في ((الحقُّ)) عند النحاة، فعلى أن ((هو)) مبتدأ، و ((الحقُّ)) خبره، والجملة خبر كان، و((من عِنْدك)) حال من معنى الحق: أي الثابت من عندك. ((مِنَ السَّماء)) يجوز أن يتعلق بـ((أَمطِر))، وأن يكون صفة لحجارة[٤٥] فـ ((هو)) مبتدأ غير فصل، وفائدة التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقاً بالوجه الذي يدعيه النبي وهو تنزيله لا الحق مطلقاً بتجويزهم أن يكون مطابقاً للواقع غير المنزل كأساطير الأولين[٤٦].

ونقل النحاس قول الأخفش: أن ((هو)) صلة زائدة كزيادة (ما). وقال الكوفيون ((هو)) عماد. قال الأخفش: وبنو تميم يرفعون فيقولون: ((إن كان هذا هو الحقُّ من عندك)). قال أبو جعفر: يكون ((هو)) إبتداء، و((الحق)) خبره، والجملة خبر كان[٤٧].

(٤٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ١/ ١٣٠، ١٣١.

(٤٤) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٤٥٤، ٤٥٥. وينظر: إعراب القرآن ١/ ٦٧٤.

(٤٥) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ٦.

(٤٦) أنوار التنزيل ١/ ٣٩٢، ٣٩٣.

(٤٧) إعراب القرآن ١/ ٦٧٤.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. المعنى: واذكر إذ قالوا هذا القول، وقالوا على وجه الدفع له، وقالوه والنبيﷺ بين أظهرهم. فَأَعْلَمَ الله أنه لم يكن لِيُعَذِبَهُمْ ورسوله بين أظهرهم. فقال ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [سورة الأنفال: ٣١]. أي: وما كان الله ليعذبهم ومنهم من يؤول أمره إلى الإسلام(٤٨).

روي أنه لما قال النّضر بن الحرث: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [سورة الانفال: ١٣]. قال له النبيﷺ: ويلك إنه كلام الله، فقال ذلك(٤٩).

وقال السيوطي: أن النّضر بن الحرث كان يأتي الحيرة يتجر فيشتري كتب أخبار الأعاجم، ويحدث بها أهل مكة. فـ ((إن)) ما ((هذا)) القرآن ((إلا أساطير)) أكاذيب ((الأولين * وإذ قالوا اللّهم إن كان هذا)) الذي يقرؤه محمد ((هو الحَقُّ)) المنزل: ((مِنْ عِنْدِك فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)) مؤلم على إنكاره قاله النّضر أو غيره استهزاء وإيهاماً إنه على بصيرة وجزم ببطلانه(٥٠). والمعنى: إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً فأمطر الحجارة علينا عقوبة على إنكاره أو ائْتِنَا بعذاب أليم سواه، والمراد منه التهكم، وإظهار اليقين والجزم التام على كونه باطلاً(٥١). فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [سورة الأنفال: ٣٣]. لأن العذاب إذا نزل عمَّ، ولم تعذب أمة إلا بعد خروج نبيها والمؤمنين منها(٥٢). فـ (اللام) لتأكيد النفي والدلالة على أن تعذيبهم تعذيب استئصال والنبي بين أظهرهم خارج عن عادته غير مستقيم في قضائه(٥٣).

٤. قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا

(٤٨) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٤٥٥.
(٤٩) أنوار التنزيل ١/ ٣٩٢.
(٥٠) تفسير الجلالين (هامش المصدر السابق).
(٥١) أنوار التنزيل ١/ ٣٩٢.
(٥٢) ينظر: أنوار التنزيل ١/ ٣٩٣. وبهامشه (تفسير الجلالين).
(٥٣) ينظر: أنوار التنزيل ١/ ٣٩٣. وبهامشه (تفسير الجلالين).

﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [سورة هود: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [سورة الحجر: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [سورة الفيل: ٣-٤].

أ. الآية (٨٢) من سورة هود تبين لنا أمر الله (عذابه) في قوم لوط بعد أن جاءه المرسلون، فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا أو أمرنا به، ويؤيده الأصل، وجعل التعذيب مسبباً عنه، بقوله ((جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا)) فإنه جواب لـ ((ما)) وكان حقه جعلوا عاليها أي الملائكة المأمورون به، فأسند إلى نفسه من حيث أنه المسبب تعظيماً للأمر، فإنه روي أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائنهم ورفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب، وصياح الديكة ثم قلبها عليهم ((وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم)) على المدن أو شذاذها ((حجارة من سجيل)) من طين متحجر لقوله -حجارة من طين -وأصله (سنك كل) فعرب، وقيل أنه من (أسجله) إذا أرسله، أو أدرّ عطيته[٥٤].

وقال الخليل: السِّجّيل: حجارة كالمدر، وهو حجرّ وطين، ويفسر أنّه معرَّب دخيل، ويقال: هذا الشيء مسجل للعامة، أي: مرسل من شاء أَخذه أو أخذ منه[٥٥]. وقيل: هو (سَنْكْ وكِلْ)، أي: حجارة وطين[٥٦]. قال أبو اسحق: للناس في السِّجيل أقوال، وفي التفسير: أنها من جلٍّ وطين، وقيل: من جلّ وحجارة. وقال أهل اللغة: هذا فارسي معرب، والعرب لا تعرف هذا، وقال الأزهري: والذي عندنا، والله أعلم، أَنه إذا كان التفسير صحيحاً فهو فارسي أعْرب لأن الله تعالى قد ذكر هذه الحجارة في قصة قوم لوط فقال: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [سورة الذاريات: ٣٣]، فقد بيّن للعرب ما عنى بـ (سجيل). وقال أبو عبيدة: (من

(٥٤) أنوار التنزيل ١/ ٤٧٦، ٤٧٧.
(٥٥) العين ٦/ ٥٤.
(٥٦) ينظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص١٩٤، واللسان (سجل).

سجيل) تأويله كثيرة شديدة[٥٧].

وقال النحاس: ((جعلنا عاليها سافلها)). مفعولان، حكى أبو عبيد عن الفراء: أنه قد يقال لحجارة الأرحاء (سجيل)، وحكى عنه محمد بن الجهم: أن سَجِلاً طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء، ((منضود)) من نعت سجيل[٥٨].

وقيل: أصله من (سجين) أي من جهنم، فأبدلت نونه لاماً[٥٩]. وقال السيوطي: ((حجارة من سجيل)) طين طبخ بالنار[٦٠]. أما ((منضود)) أي: نضد نضداً معداً لعذابهم، أو نضد في الإرسال بتتابع بعضه بعضاً كقطار الأمطار، أو نضد بعضه على بعض وألصق به[٦١].

ب. أما قوله تعالى في الآية (٧٤) من سورة الحجر. فهو وصف عذابه سبحانه قوم لوط، قال تعالى في الآية (٧٣) من السورة نفسها: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ يعني صيحة هائلة مهلكة، وقيل: صيحة جبريل عليه السلام ((مُشرِقين)) داخلين في وقت الشروق ((فجعلنا عاليها)) عالي المدينة أو عالي قراهم ((سافلها)) صارت منقلبة بهم ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ من طين متحجر أو طين عليه كتاب من السجل[٦٢].

فقوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾. نصب على الحال. وأشرقوا صادفوا شروق الشمس أي طلوعها. و((عاليها)) مفعول أول، و ((سافلها)) مفعول ثان ((من سجيل)) صفة للحجارة[٦٣].

ج. أما قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾[سورة الفيل: ٣ - ٤].

فقصتها معروفة، ذلك أن الله سبحانه، أرسل على جيش أبرهة حين توجهوا لهدم الكعبة طيراً: خرجت من

(٥٧) ينظر: اللسان (سجل).
(٥٨) إعراب القرآن ٢/ ١٠٦.
(٥٩) أنوار التنزيل ١/ ٤٧٧.
(٦٠) ينظر: تفسير الجلالين (هامش المصدر السابق).
(٦١) ينظر: أنوار التنزيل ١/ ٤٧٧.
(٦٢) ينظر: السابق ١/ ٥٤٥.
(٦٣) ينظر: إعراب القرآن ٢/ ٢٠١، إملاء ما من به الرحمن ٢/ ٤٤.

البحر خُضراً طوال الأعناق، في منقار كل طائر حَجرٌ نحو الفولة، وفي كفه حجر وفي الأخرى حجر، فكان الطائر يرمي ويرسل حجره على من قد أَرسله إليه فلا يخطئ رأس صاحبه، فيدخل في هامته ويخرج من دُبُرِه فيموت. قال ابن عباس: وإذا أرسل الله تعالى على قومٍ عذاباً لم يفلتهم، فما أَفلت منهم إلا سائس الفيل أو قائده. فقيل له: ما وراءك؟. فقال: أَتت طيرٌ مثل هذا، وأشار إلى طائر في الهواء، وكان الطائر قد اتبعه بحجر فأرسله عليه فقتله[٦٤].

فقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾. ((أبابيل)) نعت للطير أي: جماعات، واحدها (إِبَّوْل) مثل (عِجَّوْلٍ) و(عجاجيل)[٦٥]. وقيل: واحدها (إِبِّيل) كـ(سكِّين) و(سكاكين). وقيل: واحدها (إِبّال) كـ(دينار) و(دنانير). وقيل: هو جمع لا واحد له من لفظه، وقيل: هو اسم للجمع[٦٦].

وقال النحاس: وأصح ما قيل في واحد الأبابيل ما قاله محمد ابن يزيد، قال: واحدها (إِبِّيل) كـ (سكِّين) و(سكاكين). ومعروف في كلام العرب (جاءوا أبابيل) أي جماعة بعد جماعة عظيمة كثيرة بعد جماعة. مشتق من (أَبل) عليه إذا كَثُر وجمع، ومنه سميت بـ (الإبل) لعظم خلقها[٦٧].

((تَرْمِيهِمْ)) فعل مضارع والهاء والميم مفعول بهما، والأصل (تَرْمِيُهُمْ) فاستثقلوا الضمة على الياء فخزلوها[٦٨]. وهي في

(٦٤) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص١٩٤، ١٩٥.
وينظر: أنوار التنزيل ٢/ ٥٧٦، وبهامشه (تفسر الجلالين).

(٦٥) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص١٩٣.

(٦٦) ينظر: المصدر السابق، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٤٤، وإملاء ما من به الرحمن ٢/ ٢٩٤.

(٦٧) إعراب القرآن ٣/ ٧٧١.

(٦٨) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص١٩٤. وقال مكي بن أبي طالب القيسي: إذا وقفت على راء مكسورة وقفت بالترقيق، كما كانت في الوصل إذا رُمْت الحركة، لأنك قد أبقيت من الحركة بقية توجب ترقيق الراء، وهو بعض الكسر الذي كان على الراء، فإن وقفت بالإسكان، وقبلها كسرة، وقفت أيضاً بالترقيق، كما تُرقِق الساكنة، إذا كان قبلها كسرة.. وبالتغليظ إن أسكنْت لأنها تصير ساكنة قبلها فتحة مثل: (ترميهم).

موضع نصب نعت لـ (طير)، وكذلك ((أبابيل)) نعت لطير كأنه قال: جماعات متفرقة(٦٩).

وقوله تعالى ﴿ بِحِجَارَةٍ ﴾ جُرّ بالباء الزائدة. وواحد الحجارة (حَجَر)، وهو جمع غريب، ((من سجيل)) جُرّ بـ (من). والسِّجيل الشَّديد، وقيل: حَجَرٌ وطين(٧٠).

٥. قال الله تعالى: ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾[سورة الذاريات: ٣٣].

لما علم إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾[سورة الذاريات: ٣١]. وأنهم لا ينزلون مجتمعين إلا لأمر عظيم سأل عنه.

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ الآية (٣٢). يعنون قوم لوط ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ يريد السجيل فإنه طين متحجر(٧١). وقال السيوطي: مطبوخ بالنار(٧٢). فقوله تعالى: ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: لنمطر عليهم.

﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ (الآية ٣٤) في معناه قولان: أهل التأويل على أن معناه مُعَلّمة. قال ابن عباس: يكون الحجر أبيض وفيه نقطة سوداء، ويكون الحجر أسود وفيه نقطة بيضاء. والقول الآخر: أن يكون معنى ((مُسَوَّمة)) مرسلة، من سَوّمت الإبل (للمسرفين) أي: للمتعدين لأمر الله جلّ وعز(٧٣).

٦. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾[سورة الإسراء: ٥٠].

وذلك إن المشركين بعد أن مثلوا الرسول ﷺ بالشاعر، والساحر، والكاهن، والمجنون ((فَضَلّوا)) عن الحق في جميع ذلك ((فلا يستطيعون سبيلاً)) إلى طعن موجه فيتهافتون ويخبطون كالمتحير في أمره لا يدري ما يصنع ((وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً)) حطاماً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً)) على الاستنكار والاستبعاد لما بين غضاضة الحي ويبوسة الرميم من المباعدة والمنافاة والعامل في ((إذا ((ما دل عليه مبعوثون

ينظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٢١٦.

(٦٩) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٤٤. وينظر: إملاء مامن به الرحمن ٢/ ٢٩٤.

(٧٠) السابق ص١٩٤.

(٧١) أنوار التنزيل ١/ ٤٢٢.

(٧٢) تفسير الجلالين (هامش المصدر السابق).

(٧٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩.

لانفسه، لأن ما بعد ((أن)) لا يعمل فيما قبلها و((خلقاً)) مصدر أوحال. ((قُلْ)) جواباً لهم: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ أي: مما يكبر عندكم عن قبول الحياة لكونه أبعد شيء منها فإن قدرته تعالى لا تقصر على إحيائكم لاشتراك الأجسام في قبول الأعراض، فكيف إذا كنتم عظاماً مرفوتة وقد كانت غضة موصوفة بالحياة قبل، والشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد[٧٤].

إن منكري البعث، قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾ [سورة الإسراء: ٤٩] فكان جوابه سبحانه وتعالى، قل لهم: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ يعظم عن قبول الحياة فضلاً عن العظام والرفات فلابد من إيجاد الروح فيكم[٧٥].

وقال النحاس: أي توهموا ما شئتم فلابد من أن تموتوا وتبعثوا. وكانت هذه الآيات من أعظم الدلائل على نبوة النبي ﷺ. قال الله جلّ وعز: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ فأخبر جلّ وعز بأنهم سيقولون هذا، وأخبر أنهم يحركون رؤوسهم استبعاداً لما قال لهم وأنهم يقولون مع تحريك رؤوسهم أو بعده ((متى هُوَ)) وتلى عليهم فكان الأمر على ذلك[٧٦].

٧. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [سورة التحريم: ٦].

يا أيها الذين آمنوا ((قُوُا أَنْفُسَكُمْ)) بترك المعاصي، وفعل الطاعات ((وَأَهْلِيكُمْ)) بالنصح والتأديب[٧٧]. فـ ((قُوُا)) فعل قد اعتل فاؤه ولامه، فالفاء محذوفة لوقوعها بين ياء وكسرة في قولك: (يقي) على مذهب البصريين. وقال الكوفيون: إنما حذفت للفرق بين الفعل المتعدي وغير المتعدي، فحذفت في (يعد) و(يقي) لأنه متعد، وثبتت في (يوجل) لأنه غير متعد، ويلزمهم أن لا يحذفوا في (يرم) و(يثق) لأنهما غير متعديين، ولابد من الحذف فيهما. و(اللام) محذوفة لسكونها وسكون الواو بعدها، والنون

(٧٤) أنوار التنزيل ١/ ٥٨٧.
(٧٥) تفسير الجلالين (هامش المصدر السابق).
(٧٦) إعراب القرآن ٢/ ٢٤٤.
(٧٧) أنوار التنزيل ٢/ ٤٨٧.

محذوفة للبناء عند البصريين، وللجزم عند الكوفيين[٧٨].

وقرئ ((وأهلوكم)) عطفاً على واو ((قُوُا)) فيكون ((أنفسكم)) أنفس القبيلين على تغليب المخاطبين ((نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)) تتقد بها اتقاد غيرها بالحطب[٧٩]. وقال السيوطي: وقودها ((الناس)) الكفار ((والحجارة)) كأصنامهم منها يعني أنها مفرطة الحرارة تتقد بها ذكر لا كنار الدنيا تتقد بالحطب وغيره[٨٠]. و(ناراً) مفعول ثان ((وقودها الناس)) مبتدأ وخبره في موضع نصب نعت للنار ((والحجارة)) عطف على الناس[٨١].

وخلاصة الأمر:

نرى أن (الحَجَر) الذي جاء ذكره في الآيتين الكريمتين [سورة البقرة: ٦٠] [سورة الأعراف: ١٦٠]. وكان رمزاً للخير، لأن (الماء) سرّ كل شيء حي. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠].

أما الحِجارة في سائر الآيات البينات الأخرى فقد دلت على معنيين هما:

أ. (القسوة) في القلب، قال الله تعالى مخاطباً اليهود: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [سورة البقرة: ٧٤] أراد سبحانه صلابةَ الحجارة أو أشدَّ منها، وذلك بعد نَقْضِهم الميثاق، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، قال تعالى ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [سورة المائدة: ١٣].

قال النحاس: ((فـ((ما)) زائدة للتوكيد و((نقضِهم)) مخفوض بالباء، ويجوز رفعه في غير القرآن، أي فالذي هو نقْضُهم. ((يحرفون الكلم عن مواضعه)) أي يتأولونه على تأويله و((يحرفون)) في موضع نصب أي: جعلنا قلوبهم قاسية محرفين، قيل: معنى جعلنا قلوبهم قاسية وصفناهم بهذا))[٨٢].

(٧٨) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٧٤٣، ٧٤٤. وينظر: إملاء ما من به الرحمن ٢/ ٢٦٥، إعراب القرآن ٣/ ٤٦٣.
(٧٩) أنوار التنزيل ٢/ ٤٨٧.
(٨٠) تفسير الجلالين (هامش المصدر السابق).
(٨١) إعراب القرآن ٣/ ٤٦٥.
(٨٢) السابق ١/ ٤٨٦.

قال الزجاج: ((لَعَنَّاهم)) أي باعَدْناهم من الرحمةِ، وجعلنا قلوبهم قاسية أي يابسة[٨٣]. ثم قال في آية أخرى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [سورة الزمر: ٢٢]. قال محمد بن يزيد، يقال: قسا إذا صَلُب، وكذلك عتا وعسا مقاربة لها، وقلبٌ قاسٍ، أي صُلْبٌ لا يرقّ ولا يلين[٨٤].

إن وصف ((الحجارة)) بـ((القسوة)) يظل السمة الغالبة، ذلك أن القسوة: هي الصّلابة في كل شيء[٨٥]. والتي لا ينقضها قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴾[سورة البقرة: ٧٤]. ذلك أن (من) ههنا تفيد التبعيض.

ب. العقاب الإلهي في الدنيا، وفي الآخرة. ففي قصة لوط عليه السلام جعل الله سبحانه عالي القرى سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، وكذلك الحال مع جيش أبرهة. تنظر: الآيات [سورة هود: ٨٢] [سورة الحجر: ٧٤] [سورة الذاريات: ٣٣] [سورة الفيل: ٣ - ٤].

أمّا مشركو قريش الذين قالوا هذا القول للنبي ﷺ: ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ إن كان هذا هو الحق من ربك، فقد قالوه على وجه الدفع له، والتهكم، والجزم على كونه باطلاً، والنبي بين أظهرهم. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾.

وفي عذاب الآخرة فإن وقود النار التي وعد الله هي (الناس والحجارة) أعدت للكافرين..

(٨٣) معاني القرآن ٢/ ١٧٤.
(٨٤) إعراب القرآن ٢/ ٨١٦.
(٨٥) العين ٥/ ١٨٩.

المصادر والمراجع:

- أبنية الصرف في كتاب سيبويه-د. خديجة الحديثي، مكتبة النهضة-بغداد ط١، ١٩٦٥.
- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم -لابن خالويه، دار ومكتبة الهلال -بيروت ١٩٨٥.
- إعراب القرآن -لأبي جعفر النحاس، تحقيق د. زهير غازي زاهد، مطبعة العاني -بغداد ١٩٨٠.

- إملاء مامن به الرحمن -لأبي البقاء العكبري، البابي الحلبي -مصر ط٢، ١٩٦٩.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لأبي الخير البيضاوي (وبهامشه تفسير الجلالين: السيوطي والمحلى) مطبعة البابي الحلبي -مصر ط٢، ١٩٦٨.
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني -د. فاضل صالح السامرائي، دار الشؤون الثقافية -بغداد -٢٠٠٠.
- الجمان في تشبيهات القرآن -لابن ناقيا البغدادي، تحقيق د. مصطفى الصاوي، منشورات مكتبة المعارف- الإسكندرية ١٩٧٤.
- ديوان ذي الرمة -جمع بشير يموت، المكتبة الأهلية -بيروت ١٩٣٤.
- شرح ديوان ابن مقبل، تحقيق د. عزة حسن، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٦٢.
- شرح ديوان الفرزدق، شرح وجمع عبد الله إسماعيل الصاوي، مطبعة الصاوي -مصر ١٩٣٦.
- العين -للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر-بغداد ١٩٨٠ -١٩٨٥.
- كتاب سيبويه -تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧.
- الكشف عن وجه القراءات السبع- مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق د. محيي الدين رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٤.
- لسان العرب -لابن منظور -دار صادر -بيروت (ب. ت).
- مجمل اللغة -لابن فارس، دراسة وتحقيق زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة -بيروت ط١ ١٩٨٤.
- مشكل إعراب القرآن -مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق حاتم صالح الضامن، منشورات وزارة الإعلام- بغداد ١٩٧٥.
- معاني القرآن وإعرابه -للزجاج، شرح وتحقيق عبد الجليل عبده شبلي، المكتبة العصرية -بيروت ط٣، ١٩٧٢.